الفصل الخامس

النظريات السكانية

تمهيـــد عام :

المألوف عادة عند تناول النظريات المتصلة بالدراسات السكانية ، أن يقتصر الباحث على عرض وتحليل ونقد الآراء التى تعالج الجانب العددى الكمى للسكان من ناحية تأييد زيادة السكان أو ترجيح تحديد النسل ، ولكننا رأينا ، تطبيقاً للمنهج التكاملى ، ألا نغفل الجوانب الكيفية النوعية للنظريات السكانية ، ولذلك فقد قسمنا هذه النظريات إلى قسمين عامين : قسم يعنى بطريق مباشر أو غير مباشر بالصفات الكيفية النوعية ، وله اتجاه هادف للارتفاع بالصفات والخصائص الكيفية للسلالة البشرية وفى نطاق الإمكانيات السكانية فى الوحدات السياسية ، وهذا القسم يعتمد فى المقام الأول على تقدم الدراسات الحيوية البيولوجية ومحاولة الإفادة منها بتطبيقها وتجريبها على المجموعات السكانية ، ويعتمد كذلك على تطور الدراسات الاجتماعيه فى النواحى التطبيقية العملية والتشريعية التى تكفل إطراد تقدم الخصائص النوعية السكانية ، باتخاذ إجراءات وضوابط اجتماعية إيجابية أو سلبية وقائية ، وتنتظم هذا القسم من النظريات النوعية ، مجموعة الآراء الايوجينية التى تلتقى فى المحاولات المتابعة لرقى وتحسين الفروع الإنسانية ، والدراسات التى أجريت على الخصوبة السكانية بالنسبة لفروع العائلات البشرية ومختلف المستويات والطبقات الاجتماعية .

أما القسم الثانى من النظريات الكمية العددية ، فيرتكز فيما نعتقد على النسبية الاجتماعيه ، بمعنى أننا لا نؤمن بعمومية تلك النظريات وصلاحيتها التطبيقية على المشاكل السكانية فى جميع المجتمعات الإنسانية ، إذ أن لكل مجتمع ظروفه السكانية ، وأحواله المعيشية ، وأيديولوجيته الإصلاحية ،

ومعتقداته الدينية ، وعاداته الجماعية ، ونظمه السياسية ، ومعاييره وقيمه الأخلاقية ، إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية ، التى تعمل متكاملة وبصورة إيجابية فى الحكم على صدق نظرية من النظريات السكانية فى فحواها العام أو محتواها المطلق أو تفريعاتها الجزئية على مجتمع من المجتمعات ، وفى أغلب الأحيان تعكس نظرية العالم الظروف والمقتضيات الاجتماعية للمجتمع الذى يعيش فيه فى فترة زمنية معينة ، ولما كانت الجماعات فى حالة دينامية متطورة ، فإن ما يصدق عليها أو يصلح تطبيقه فيها فى مرحلة من مراحلها لا يصدق ولا يصلح فى مرحلة أخرى ، ومن الأحرى أن النظرية التى قد تنطبق على الحالة السكانية لدولة من الدول لا تنطبق على غيرها ، ومن هنا وجب أن ننبه الأذهان إلى خطورة استمداد نظريات غريبة فى علاج مشاكلنا السكانية ، إذ أنه لا بد وأن تنبثق سياستنا السكانية من واقع حياتنا الاجتماعية وأيديولوجيتنا الفكرية العقائدية .

المبحث الأول

النظريات الكيفية النوعية

المطلب الأول

اتجاهات تحسين النسل

ترتبط النظريات الكيفية النوعية بالاتجاهات النظرية والعلمية التطبيقية لتحسين السلالة البشرية ، ومن ثم تحسين نسل سكان المجتمع . وهذه الاتجاهات والأفكار قديمة ، فقد نادى بها ومارستها فلاسفة وشعوب كثيرة ، فنجد أن الشعب الأسبرطي القديم يأخذ ببعض الممارسات التي تقصد إلى تحسين نوع سكانهم لضمان التأكد من سيطرتهم على البلاد التي تستعمرها ، ومن أمثلة هذه الممارسات : قتل الأفراد عديمي الفائدة ، وتقييد الهجرة بالنسبة لسكانهم المواطنين ، وتشجيع التزاوج بينهم دون الإمتزاج بسكان البلاد الخاضعة لسكانهم ، بل كانوا يمارسون من فترة لأخرى عملية الإبادة بالجملة لسكان تلك البلاد لاعتقادهم بأن انسالهم ضعيف يورث الصفات النوعية الضعيفة لشعوبهم .

كذلك مارس عرب الجاهلية كثيرا من الممارسات التي تهدف إلى تحسين نوعية سكانهم ، فكانوا يقرون نوعا من الزواج المؤقت بقصد الوصول إلى هذه الغاية ، وكانوا يتأذون ويتشاءمون من مشوهي الخلقة وضعافي البنية [1] .

وقد عبر عن هذه الفكرة في التفكير الغربي الشاعر اليوناني القديم

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مقال عن العرب وعلم تحسين النسل .
مجلة العلوم العدد الأول يناير سنة ١٩٥٨

تيوجنيز Theognis فى القرن السادس قبل الميلاد ، وعالجها فى ثنايا قصائده ، وتلاه بعد ذلك أفلاطون وأرسطو ، وقد أكد كل منهما أهمية قوة السلالة ومتانة البناء الفيزيقى للجسم ، ونجد هذا واضحاً فى جمهورية أفلاطون وكيف أن التربية والنظر والزواج كانت ترتبط بهذه الغاية وهى إنتاج سكان صالحين جسما وعقلا . . .

كما اقترح أرسطو فى هذا المجال طائفة من الممارسات الشاذة العنيفة واستساغ الاجهاض وإعدام الأطفال ناقصى التركيب Deformed أو المشوهين وفاسدى الأخلاق ، واقترح تحديد السن الذى يجب فيه أن يقلع الإنسان عن الزواج أو عن الإنسال ، زاعما أن الرجال المتقدمين فى السن ، شأنهم شأن الأحداث الصغار لا ينجبون إلا مخلوقات ناقصة جسما وعقلا ، ونسل الشيوخ فى نظره إنسال ضعيف قد لا يثمر فيه العلاج ، فيجب أن يمتنع الفرد عن الانسال بعد أن يبلغ الوقت الذى يصل فيه عقله إلى غاية نموه ، وقد حدد هذا بصفة عامة بسن الخمسين (١) .

وقد أظهر الرومان اهتماما بهذه الاتجاهات النوعية فى تحسين سلالتهم (٢) وفى القرون الأولى من المسيحية وكذلك فى العصور الوسطى اختفى الاهتمام بوسائل تحسين النسل ، كما تضاءل الاهتمام بسائر المسائل العلمية الأخرى . ومع ذلك فقد كنا نجد بين الحين والآخر اهتماماً من بعض المفكرين الذين كتبوا فى الموضوع من وجهات النظر الخاصة . وقد كان الناس وخاصة فى أوربا طوال هذه الفترة يأخذون ببعض المعتقدات اليوجنية ، من ذلك أن زواج رجل من شمال أوربا بامرأة من جنوبها أو العكس ينتج نسلا قوياً ، ومنها أيضا تحديد سن الزواج ، فنجد « كولونا Colonna » يحذر من أن الزواج المبكر ربما ينتج نسلا ضعيفا كما اعتقد

(١) الدكتور مصطفى الخشاب : النظريات والمذاهب السياسية ص ٨٩ .

(٢) Duncan : Race and Population Problems pcs

« بوترو Botro » أن التباين الكبير فى السن بين الزوجين يؤثر فى نسلهما .

وفى مستهل القرن السابع عشر أحيى الفيلسوف الراهب « كمبانيلا » بعض نظم التحسين وكانت هذه فى معظمها قائمة على أراء أفلاطون فى هذا الشأن (١) .

علم تحسين الوراثة :

هذا وتعتبر الحركة الحديثة لتحسين سلالة السكان ثمرة الدراسات العلمية فى الوراثة ، وقد كان المحرك الأول لها فرانسيس جالتون F. Galton ويعتبر مقاله عن « الوراثة والعبقرية والشخصية Heredity, talent and Character » الذى نشر سنة ١٨٦٥ وكتابه « النبوغ الموروث Heredetary genious » البداية الحقيقية لعلم « تحسين النسل Eugenics »

حاول جالتون أن يثبت أن الأولاد ذوى المقدرات المميزة ينحدرون من آباء ذوى مقدرات فوق المستوى العادى ، وقام بدراسات فى السلالات أدت به فى النهاية إلى تقرير أن النبوغ والانحطاط أشياء تنتقل بالوراثة ، وقد ابتكر جالتون بعض الطرق الرياضية لقياس درجة شدة الوراثة ، وكانت هذه الطرق نفسها أساسا اعتمد عليه فى الدفاع عن أهمية مقاييس تحسين السلالات . وقد تقدمت بحوثه على يد مساعده وخليفته « كارل بيرسون » Karl Pearson ، وقد حاول كل من جالتون وبيرسون ابتكار بعض الوسائل التى يمكن بها التنبؤ بالخصائص العامة للأجيال اللاحقة التى تتفرع عن والدين منتجين ذوى طابع معين ، وذلك بقصد جعلها أساسا يرتكز عليه التطبيق العملى للانتخاب السلالى فى الانسان (٢) .

---

(١) المصدر السابق .

Duncan Race and Population Problems

(٢) Duncan Race and Pop. Prob. P. 66

وقد واصل البحث فى هذا الموضوع أحد أتباع جالتون وهو « وليام جرج William Geg » الذى نشر سنة ١٨٧٢ كتابه « ألغاز الحياة Enigmas of life » الذى دعا فيه إلى أننا يجب ألا ندع أجيال الضعفاء وناقصى التركيب deformed والمشوهين يعيشون وينجبون ليضاعفوا فى أمراض المجتمع وآلامه . . يجب ألا نسمح بالحياة إلا للأقوياء المعافين ليتكاثروا ويكونوا قوة فى المجتمع .

ومنذ الإعلان عن هذه الآراء وانتشارها أخذت حركة البحوث الخاصة بتحسين السلالة تخطو إلى الأمام . حتى أنه فى السنين الأخيرة طغت البحوث اليوجينيه على تلك المنصبة على النظريات التقليدية للوراثه .

وقد اتجهت هذه البحوث نحو كشف المسائل الآتية :

١ - « مدى إمكانية وراثة الخصائص الفيزيقية .

٢ - « مدى إمكانية وراثة الخصائص العقلية والنفسية .

٣ - « الوسائل الإيجابية والسلبية التى يمكن بها تحسين الخصائص العقلية والفيزيقية للأجيال التالية .

وقد تعارف المشتغلون باليوجينية على أنها تعنى على حد تعبير جالتون « دراسة الوسائل العلمية والاجتماعية التى بمقتضاها يمكن أن نحسن أو نرفع من شأن الخصائص الوراثية للأجيال التالية ، سواء كان هذا التحسن من الوجهة الفزيولوجية أو من الناحية العقلية » .

ولا شك أن الناس يتمايزون أو يختلفون فرداً عن آخر فى ضوء مايرثونه من خصائص وراثية وصفات سلالية انحدرت إليهم من أسلافهم بصورة عامة ووفقاً للبيئات المحيطة بهم .

واصطلاح Euginics أصبح فى الوقت الحالى يقتصر على كافة المحاولات العملية والعلمية التى تؤدى إلى تحسين الصفات الوراثية والخصائص

السلالية للأجناس البشرية فقط بعد أن كان العلم فى سنواته الأولى وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر يشمل فى نطاقه كلا من النبات والحيوان . . . ومن أجل هذا كانت الإقتراحات اليوجينية فى وقتنا هذا تهدف فى النهاية إلى تحسين اجتماعي .

وهذه الوسائل المتعلقة بتحسين السلالات وخصائصها الوراثية تختلف عن طائفة أخرى من الوسائل والاقتراحات التى تعنى بنفس الغاية ولكنها تهتم بتحسين الظروف البيئية والاجتماعية . بينما الوسائل التى تدخل تحت اصطلاح Enginies وسائل من طبيعة بيولوجية متعلقة بالتركيب المادي للإنسان Human meterial . وإن كانت كل من الوسائل المتعلقة بالجانب المادي والجانب البيئى الاجتماعى تسيران جنباً إلى جنب من أجل الارتقاء بالإنسان ككل ، فلا شك أنه للحصول على نتائج إيجابية فى هذا الصدد لا من أن تتكامل كلا الناحيين .

وينبغى أن نشير إلى أن علم تحسين السلالات Eugenics يعنى إلى جانب تحسين الخصائص والصفات السلالية للانسان ، بدراسة الدور الهام الذى تلعبه تلك الصفات السلالية فى تحديد خصائص الأجناس البشرية المتباينة وإظهار ما تنطوى عليه من ملكات أو قدرات مميزة ، ويجدر بنا أن نشير إلى أن النظريات الكيفية النوعية فى السكان تهدف إلى :

(ا) منع تزايد النسل من جانب الأشخاص مشوهى الخلقة .

(ب) تشجيع التناسل من جانب الأصحاء عقليا وجسمانيا .

هذا وقد سنت بعض الدول تشريعات لمنع تزاوج ضعاف العقول والمصابين بالنقص العقلى . وتعتبر روسيا السوفيتية فى مقدمة الدول التى سلكت هذا المسلك وكذلك بعض الولايات الأمريكية . . وحددت الحالات التى يمتنع فيها التزاوج بصفة عامة كالآتى :

١ — حالات النقص العقلى .
٢ — حالات الضعف العقلى
٣ — حالات الصرع Eplipsy .
٤ — الاجرام بالعادة .
٥ — حالات إدمان الخمور .

وكثيراً ما تلجأ بعض الدول إلى وسيلتى العزل والتعقيم للحد من تناسل ضعاف العقول ..

وتلجأ كثير من المجتمعات فى الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص والضعف والتفكك ، دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفى كل الأحوال الحد من الزيادة السكانية أو تحديد النسل وهذا واضح فى الاتحاد السوفيتى فمع أن الدولة تهدف فى سياستها السكانية العامة إلى تشجيع التناسل فإن ذلك لم يمنع السوفييت من الأخذ بالوسائل الحديثة فى تحسين السلالات .

وتعد انجلترا فى مقدمة الدول التى قطعت شوطاً بعيد فى ميدان تحسين السلالات وتدلنا الاحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالى ٥٠,٠٠٠ شخص من ناقصى التركيب العقلى أو الفيزيقى قد تم وضعهم فى معازل خاصة تحت المراقبة .

ولكن سياسة العزل هذه تكلف الدولة نفقات باهظة وتترك أثراً سيئاً فى نفسية المعزولين خاصة ، هؤلاء الذين كان يمكنهم بشىء من التوجيه والترشيد أن يعالجوا أنفسهم أو يمتنعوا من تلقاء أنفسهم عن التناسل دون إجبار من جانب السلطات الرسمية .

ومما يجدر الإشارة إليه ، أن تقدم الدراسات النوعية للسكان قد تقدمت تقدماً ملموساً فى بريطانيا بفضل الجهود التى بذلها جالتون F. Galton ،

فقد قام بدراسات أيجونية أدت به فى النهاية إلى تقرير أن النبوغ والانحطاط فى الصفات النوعية للسكان تنتقل بالوراثة ، وابتكر عدة طرق رياضية لقياس مدى تركيز العوامل الوراثية فى تلك الصفات Intensity of Inheritance وتقدمت بحوثه على يد كارل بيرسون Karl Pearson ، وبفضل جهود هذين العالمين زاد الانتباه إلى أهمية هذه الدراسات فى بريطانيا ، ففى عام ١٩٠٤ ، أسس جالتون فى جامعة لندن جماعة للبحث فى وسائل تحسين النسل ، وتطورت هذه الجمعية فيما بعد إلى ما يعرف باسم معمل فرانسيس جالتون للدراسات القومية لتحسين النسل .

Francis Galton Laboratory of National Eugenics

وقد ساهم العالم بيرسون بجهوده فى هذا المعمل منذ عام ١٩٠٧ . وفى عام ١٩٠٨ تأسست « جمعية التربية الأيوجينية » The Eugenics Educational Society برياسة ليونارد دارون Leonard Darwin . وانتشرت فروع هذه الجمعية فى أنحاء متفرقة من الجزر البريطانية .

والملاحظ بصفة عامة أن الدراسات النوعية للسكان فى بريطانيا قد تركزت أساساً على سياسة ضبط ضعاف العقول والعناية بهم (٣) .

ويعتبر الكسندر جراهام بل Alex. Graham Bell ، رائد الأبحاث المتعلقة بتحسين النسل فى الولايات المتحدة ويخلفه من الاهتمام بهذه المباحث وتدعيمها العلامة دافينبورت Davenport الذى أسس فى عام ١٩١٠ ، مصلحة تسجيل مباحث علم تحسين النسل (٤) وحددت مهمتها فيما يلى :

---

(١) تقوم هذه المنظمة بنشر سلسلة محاضرات ومجلة تحب اسمها Annals of Eugenices

(٢) تنشر هذه الجماعة مجلة ربع سنوية اسمها Eugenics Review

(٣) راجع كتاب Hogben ; Genetic Principles chap 8. Encyclopedia Americana. Vol. 10

(٤) راجع بحوث علم القياس الحيوى Biometry فى مجلة Eugenics Record Office The Eugenics Record Office, N. Y.

١ — خدمة الاهتمامات الخاصة بتحسين النسل .
٢ — عمل سجل تحليلي بخصائص الأسر الأمريكية .
٣ — تدريب خبراء ميدانيين لجمع المعلومات التي تهم الدارسين لوسائل تحسين النسل .
٤ — تنمية الوعي الميداني الذي يساعد على جمع هذه المعلومات .
٥ — التعاون مع المؤسسات والأفراد والفئات التي تهتم بالدراسات التحسينية للنسل :
٦ — بحث وسائل وأساليب الوراثة النوعية للخصائص الإنسانية .
٧ — بذل المشورة بخصوص الصلاحية السلالية بالنسبة لما يعقد من زيجات .

ثم تتابعت بعد ذلك الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالبحوث السلالية ، مثل رابطة الدراسات الأيوجينية (١) وجماعة علم تحديد النسل الأمريكية (٢) التي تأسست في عام ١٩٢٦ وزاد نشاطها ابتداء من عام ١٩٣٠ حين حددت ونظمت قواعد وقوانين الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وقد برز نشاط هذه الجماعة بشكل ملحوظ في مجلاتها . وخاصة مجلة « تحسين النسل » Eugenics التي تغير اسمها إلى « مجلة الشعوب » Peoples في عام ١٩٣١ .

هذا وقد استجابت عدة جامعات ومؤسسات تعليمية في أمريكا لهذه الحركة الأيوجينية التي تعنى بالدراسات النوعية للسكان ، وانتشرت فروع جماعة دراسات تحسين النسل في سائر مناطق الولايات المتحدة الأمريكية ، وازداد هـــذا الاتجاه نموا وازدهارا بإنشاء مؤسسة تحسين السلالة

---

(1) Eugenics Research Association.
التي تصدر مجلة باسم Eugenical Review
(2) American Eugenics Society.
Encyclopedia Americana. Vol. 10. p. 570.

فى ميتشيجان[1] ومؤسسة رفع مستوى الجنس البشرى Human Betterment Foundation ومعهد دراسة العلاقة الأسرية[2] وكلاهما فى كاليفورنيا ، ثم جماعة التربية الأيوجينية فى شيكاغو[3] وكذلك جمعية جالتون Galton فى نيويورك[4] .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإننا نلمس انتشار الدراسات النوعية للسكان فى كل من ألمانيا وفرنسا والسويد وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى ، وقد تبلورت هذه الدراسات فى الاتحاد الدولى للمنظمات الأيوجينية[5] الذى يصدر مجلته الموسومة باسم Eugenical News ، وقد باشر نشاطاً مرموقا فى تنظيمه ودعوته لعدة مؤتمرات دولية لمناقشة المسائل النوعية المتعلقة بالسكان وتحسين السلالات .

وحمادى القول ، يمكننا أن نقرر بوجه عام أن الدراسات النوعية للسكان قد خطت خطوات واسعة وتقدمت تقدماً ملحوظا فى أوربا وأمريكا ، وانتقلت من النطاق الأقليمى القومى الوطنى إلى المجال الإنسانى الدولى .

ولا يسمح لنا المجال بذكر تفصيلات محاولات أصحاب النظريات النوعية ولكننا سنكتفى بأن نشير إلى أهم الآراء التى قيلت بهذا الصدد والتى ارتكزت على تحسين المستوى الكيفى والنوعى للسكان عن طريق التحسينات التى تطرأ على البيئة الاجتماعية للسكان ، ويطلق عادة على هذا الاتجاه الفكرى اسم « Euthenic » أى دراسة الوسائل المؤدية إلى رفع المستوى النوعى للسكان عن طريق تحسين البيئة الثقافية والاجتماعية لهم .

(1) The Race Betterment Foundation Michigan.
(2) The Institute of Family Relations.
(3) The Eugenics Education Society of Chicago.
(4) The Galton Society of N. Y.
(5) The International Federation of Eugenics Organization.

وفى مقدمة هذه الآراء ما يراه العلامة ردفيلد Redfield من أن لسن الزواج دوراً هاماً فى تحسين نوع السكان ، فقد اتضح له ذلك من إحصاء قام به على ٥٧١ من رجال المجتمع الممتازين ، ووجد أن الطفل الذى يولد لأب مكتمل السن (حول الستين) يتاح له فرص النبوغ أكثر بأضعاف مضاعفة من ابن لأبوين صغيرى السن ، كما أنه انتهى إلى أن الإنسال البطىء Slow-Breeding يعتبر أمراً حيوياً لإنتاج نوع نابه ، وقدر أن السكان الذين ينتسبون إلى نوع غير راق فى خصائصة Inferior Stock يحتاجون إلى مائة عام لكى يصبح نوعهم أرقى Superior Stock ، وهذا النوع الراقى يحتاج إلى مائتى عام لكى يصبح نوعا عبقرياً ممتازاً (١) .

وكذلك أشار العالمان وتنسكى W. S. Woytinsky omd E. S (٢) Woytinsky أن التحسينات النوعية ورفع المستويات الصحية تتوقف على رفع المستويات الاقتصادية فى الجماعات المتخلفة ، أما فى المجتمعات المتطورة نسبياً ، فإنها ترتكز أساساً على تنسيق الخدمات الصحية ، ورفع المستوى الصحى يرتكز فى أساسه على عملية نهوض اجتماعية متكاملة ، ومعنى ذلك أن التحسين النوعى للسكان يبدو مرتبطاً بالمسألة الاقتصادية فى المناطق المتخلفة ، ومتصلا بالخدمات الاجتماعية فى الدول الصناعية .

أما العلامة « هنتجتون Huntington » فيسلم بأن الأفراد النابهين يغلب أن يكونوا أبناء لآباء كبار فى السن نسبياً ، إلا أن « هنتجتون » لا يرجع ذلك إلى الكبر فى ذاته ، وإنما يرجعه إلى أن التأخر فى سن الزواج

---

(١) نحن لا نؤمن بهذا الرأى ونؤيد العلامة كارساوندرز Carr-Saunders فى معارضته له فليس هناك من سبب يحمل على الاعتقاد بأن والدين كبيرين فى السن يمكن أن ينجبا أولادا يختلفون فى صفاتهم الموروثة النوعية عن النسل الذى أنجباه فى صدر حياتهما .

(٢) W.S. Woytinsky and E.S. Woytinsky, World Population and Production, Trends and Outlook N. y 953

يترتب عليه استقرار اقتصادى وتضاعف فرص تربوية قيمة ، هذا من الناحية الاجتماعية ، أما من الناحية البيولوجية أنه ربما كانت قوة الوالدين غير عادية مما جعلهم لا ينجبون إلا بعد فترة طويلة ـ نسبيا ـ من الزواج ، وبالتالى اكتسب الأطفال قوة فيزيقية Physical Vigor ساعدتهم بلا شك على التفوق .

رأى العلامة جوليان هكسلى J Huxley (١) :

ساهم « هكسلى » مساهمة فعالة فى أبحاث تحسين النسل ، وهو ليس عالما بيولوجيا فحسب بل هو فيلسوف اجتماعى أيضا وله آراء جريئة فى هذا الموضوع يمزج فيها بين العلم المستمد من البحث والتجربة وبين التأمل والتعمق فى شئون الاجتماع .

يرى « هكسلى » أن علينا أن نرسم سياستنا لتحسين النسل وفق الخطط الآتية :

أولا ـ منع آثار العقم : ويظن أن للطبقات العليا الاقتصادية من القدرة ما ليس لغيرها ، أو على الأقل من المقدرة لتنجح فى نظامنا الاجتماعى ولكنها لا تتناسل بسرعة حتى يمكن أن تحل ذريتها محلها أماكنية أو كجزء مئوى من مجموع السكان . فعلينا إذن محاولة علاج هذا الحال ، بالنصح الدينى والاستعانة بالوطنية ، وبالطرق المحسوسة الواضحة وذلك بإعطاء الرواتب الإضافية لأصحاب العائلات الكبيرة ، وتخفيض نفقات التعليم ، وانقاص ضريبة الدخل من أجل الأبناء . أما الطبقات الدنيا ـ وهى كما نزعم ـ أقل مقدرة من غيرها ـ فإنها تتناسل بسرعة كبيرة جداً نسبيا ـ فعلينا أن نعلمها طرق تحديد النسل ، بألا نسمح بمساعدتها وباستفادتها من العلاج بالمستشفيات الحكومية ، حتى لا يكون فى القضاء على آخر عائق فى سبيل الانتخاب

(١) جوليان هكسلى : الإنسان فى العالم الحديث (مترجم)

الطبيعى Natural Selection ما يسهل إنجاب الأطفال أو بقاءهم . ويجب أن يكون التعطل ذريعة لتعقيمها ، أو على الأقل تتوقف المساعدة على عدم الاكثار من إنجاب الأطفال .

ثانيا — رسم الخطط لبيئة مثالية :

ولا شك أن المثل العليا للبيئة الاجتماعية تختلف اختلافا كبيرا باختلاف الآراء والمفكرين غير أنها تلتقى جميعا عند تلك البيئة التى تهيىء الفرص للعمل المثمر الذى لا يتجاوز الحد الذى يشعر عنده الأفراد بالاجهاد ، والذى لا تكون ثمراته مجرد الحصول على الضروريات فحسب ، بل يمكن من تحقيق قدر معقول من طيبات الحياة وملاذها ، وييسر الحصول على قدر مناسب من وقت الفراغ ، وفضلا عن هذا وذاك فإن البيئة المثالية تمكن كل إنسان من التعبير عن مواهبه الفيزيقية والعقلية تعبيرا عاليا مثاليا سواء فى ألعاب القوى الرياضية أو الآداب أو الفنون أو الخدمة الاجتماعية

وهذه الخطط تتطلب تغيرا جذريا فى البيئة الاجتماعية للسكان ، فضلا عن التحكم فى « البلازما الجرثومية الإنسانية » ، وتقتضى ارتفاعا ملحوظا فى مستوى التغذية للغالبية العظمى من السكان ، حتى يكون كل فرد مزودا بالوحدات الحرارية اللازمة ، والعوامل المساعدة الملائمة للرياضة الصحية وتحديد الطاقة الإنتاجية ، وتكافؤ الفرص التعليمية وهكذا نستطيع أن نتأكد من أنه فى ظل تناسل الطبقات بطريقة أفضل ، سيقلل رفع مستوى المعيشة من آثار العوامل الوراثية ، ويفتح المجتمع أنماطا جديدة للقدرة العاليه ، وستصبح الطبقات الفنية رافدا من روافد التحسن السلالى .

ويرى هكسلى فوق ما تقدم أن النظام الفردى التنافسى القائم على الرأسمالية ، عاجز عن الانتفاع بما لديه من العوامل الوراثية القيمة وزيادتها ، وعاجز عن تشجيع التغييرات الملائمة وإبعاد التغييرات الضارة ومن هذه

الزاوية يدعو هكسلى علماء تحسين النسل إلى محاولة تغيير النظام الاجتماعى ، بحيث تسير البيئة الاجتماعية فى اتجاه تصاعدى يزيد فرص الانتخاب التحسينى للسكان .

وأهم من ذلك علينا أن نحاول إيجاد نموذج لحياة إقتصادية إشتراكية لاتكون عقيمة بالوراثة وعلينا أيضاً أن نحاول إيجاد نموذج للعائلة وللحياة التناسلية يمكن أن يسمح للعلم (تحسين النسل) بأن يكون أكثر سرعة وبناء .

ويبدو جلياً أن من الواجب التخلص من التزاحم الفردى كحافز أساسى للرقى المالى والإجتماعى فى الحياة . وعلينا تنمية قوة الدوافع الجماعية والدوافع الجماعية قوية فى الحياة القبلية ، وكانت قوية فى كثير من المدنيات القديمة كاليابانية القديمة . ومع ذلك فأهم مايهمنا أن نعرف أنها نجحت إلى حد كبير فى أن تأخذ مكان البواعث الفردية الحالية ، أو على الأقل فى أن تقلل من أهميتها الإجتماعية فى كثير من الدول الحديثة وبخاصة ألمانيا النازية وجمهوريات الاتحاد السوفيتى .

ويستدرك « جوليان هكسلى » فيقول ليس من عمل علماء الحياة البحث فى المزايا الخاصة والإجتماعية لمختلف الفلسفات السياسية . ولكن قد يجوز لهم أن يبينوا أن البواعث الإجتماعية ليست كلها متساوية فى الأهمية من وجهة نظر علم تحسين النسل . فمثلا كانت البواعث الجماعية فى ألمانيا النازية تتضمن تقوية الروح القومية والنشاط القومى بدلا من التقليل منهما ، وهذا عكس ما يسعى إليه علم تحسين النسل . ولا مراء فى أنه قد يقال أن نتيجة هذا العمل تهم علم تحسين النسل وهناك كثيرون يؤيدون أهمية الإجراءات التحسينية التى اتخذت فى ألمانيا تحت تأثير الآراء والعواطف الإشتراكية القومية حتى ولو كان بعضها عقيما وغير علمى ، ولكنها إذا أدت فيما بعد إلى كثرة السكان والحرب . فلا بد أن تكون فاسدة . وعلينا فى مسائل التطور ، كما يعتقد هكسلى ، أن نأخذ بالرأى الطويل المدى .

هذه بعض مقتطفات من رأى العلامة جوليان هكسلى وهى كما سبق أن أشرت مزيج من العلم والفلسفة الإجتماعية .

هذا ويمكن أن نوجز ما أشار إليه العلماء بصدد مقترحات الوسائل الإيجابية لتحسين النسل فيما يلى :

١ — تشجيع الأصحاء على التزاوج والإنجاب بصرف الإعانات والأوسمة.

٢ — قيادة حملات الدعاية المنظمة لتبصير الرأى العـــام بحيوية هذا الموضوع .

٣ — وضع تشريعات تفرض ضرائب إضافية على الأصحاء الأقوياء غير المتزوجين .

٤ — تحديد الأجور مع مراعاة أن يعنى الحد الأدنى لهذه الأجور بحاجة الإنسان إلى السعرات الحرارية اللازمة لتوليد الطاقة والنمو .

٥ — تشريعات إجتماعية وصحية من أجل توفير ظروف العمل الملائمة.

٦ — تشريعات إجتماعية ترشيدية للانتفاع بأوقات الفراغ .

ثالثاً : الوسائل السلبية لتحسين النسل Negative Euginics [1]

والمتحمسون للجـانب السلبى لتحسين النسل ينادون دائماً بالتخلص من العوامل الوراثية غير المرغوب فيها وذلك بمنع الأفراد الحاملين، للعوامل الوراثية السيئة من أن ينجبوا أطفالا . ولما كان هذا المنع ليس من السهل فقد اقترحت طرق ثلاث :

١ — منع تزاوج جميع الناقصين defectives .

٢ — وضعهم فى مؤسسات .

٣ — التعقيم Sterilization .

وبخصوص الإقتراح الأول نجد أنه طريقة علاج مأمونة فعلا ولـكن

1. Duncan : Raee ond Population Problems 74.

لبعض الشواذ الظاهرين فقط . ولهذا فان كل الأفراد الذين يحملون الجينات المشوهة يصبحون هم أنفسهم مصدراً للتشويه . ولهذا فان منع هؤلاء من الأنسال تماما سينتج عنه اختفاء أمثالهم كليه فى الجيل التالى . ولا تفيد هذه الطريقة إذا كان النقص أو الخلل ظهر حديثاً عن طريق الطفرة Mutation . وتجدر الإشارة إلى أن أكثر العيوب الوراثية أهمية بما فى ذلك حالات الضعف العقلى ليست ظاهرة ولكنها كامنة Recessive .

أما اقتراح وضع الشواذ فى مؤسسات فيمثل حملا باهظا من الناحية المادية يثقل كاهل جيل أو جيلين . بل ان المؤسسات الموجودة فعلا لا يمكن أن تتسع لأكثر من ربع الشواذ . وقد قدر العلامة « دانكان Duncan » عددضعاف العقول فقط الموجودين فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٧ بحوالى ٦٠٠ر٠٠٠ وهناك بالطبع فئات ناقصى العقول والمصابين بالصرع والجنون وبغيرها من الأمراض التى تنتقل بالوراثة .

أما الإقتراح الثالث وهو التعقيم فهو عبارة عن عملية جراحية تجرى على المصابين بالأمراض والعيوب والتشوهات الوراثية . ولا يفقد الأشخاص الذين تعمل لهم هذه العملية صفاتهم الجنسية كما لا يدل مظهرهم الخارجى على أن هذه العملية قد أجريت لهم ، ولكنهم لا يستطيعون انجاب أطفال . ويبدو أن هذا الإقتراح أسهل الإقتراحات الثلاث وأقلها ضرراً . إلا أن الأخذ به يلقى معارضة بعض الفئات ، الذين يرون فى التعقيم مخالفة وتدنيس للشرائع معتقدين أن لكل إنسان حق مقدس divine right فى الزواج والانجاب بصرف النظر عن شذوذ ما ينجب . وفريق آخر من المعارضين يبنون وجهة نظرهم المعارضة على أساس أننا لا نعرف القدر الكافى عن حقائق الوراثة التى تمكننا من التعرف بالضبط على من يعقموا ومتى يعقموا ؟

وقد أخذت بعض الدول بسياسة المنع والتعقيم ونصت على ذلك

فى قوانينها ونظمها ، وفى بعض البلاد لا تتم عملية التعقيم هذه إلا باستشارة الفرد أو باستشارة أوصيائه . وفى بلاد أخرى تتم هذه العملية إجبارياً بحكم قضائى .

وفى مقدمة البلاد التى تأخذ بسياسة العزل والتعقيم الاتحاد السوفييتى وبعض الولايات الأمريكية ، وحددت الحالات التى يمنع فيها الزواج أو يجرى لها التعقيم كالآتى : (١)

١ — حالات النقص العقلى Mental defectiveness

٢ — حالات الضعف العقلى Feeblemindedness

٣ — حالات الصرع Eplipsy

٤ — الإجرام بالعادة .

٥ — إدمان الخمور Alcoholism

وقد لجأت كثير من الدول فى الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص العقلى والضعف ،دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفى كل الأحوال الحد من الزيادة السكانية أو تحديد النسل ، وهذا واضح فى الاتحاد السوفيتى فمع أن الايديولوجية الأشتراكية تتعارض مع سياسة تحديد النسل ، إلا أنه فى الوقت ذاته تأخذ بالوسائل الحديثة فى تحسين السلالات .

وتعد انجلترا فى مقدمة الدول التى قطعت شوطا بعيدا فى ميدان تحسين النسل وتدلنا الأحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالى ٥٠٠ر٠٠٠ شخش من ناقصى التركيب العقلى أو الفيزيق قد تم وضعهم فى معازل تحت المراقبة .

وجرت كثير من ولايات الولايات الأمريكية المتحدة على سن تشريعات ملزمة للأخذ بسياسة التعقيم والعزل . فى سنة طبق القانون المتعلق بالعزل

والتعقيم فى ٢٣ ولاية من مجموع الولايات الأمريكية الثمانى والأربعين .

وتدل الأحصاءات التى تنشرها مراكز العزل والتعقيم على أنه قد تم أجراء ٦٠٠٠ عملية للتعقيم فى سنة ١٩٢٦ وحدها .

وقد اقترح — كخطوة تمهيدية — أن يلزم كل شخص بتقديم شهادة عند شروعه فى الزواج تتضمن تاريخه الشخصى والأسرى والأمراض التى أصيب بها ، ونتائج الفحص الطبى العام الذى يجرى فى ولايته .

وقد أخذت بعض الدول فعلا بهذا الأقتراح وأصدرت تشريعات بتقديم هذه الشهادات ، إلا أن هذه التشريعات لم تصل بعد إلى درجة الألزام القهرى .

المطلب الثانى

الخصوبة المتباينة فى الطبقات الاجتماعية

يلاحظ فى الوقت الحاضر ، وفى ضـــوء الدراسات الديموجرافية المعاصرة ، أن النقص فى معدل المواليد أكثر ظهوراً فى الجماعات والطبقات التى على قدر كبير من التعليم ، وهى الطبقات التى تستطيع أن تولى أطفالها العناية الاجتماعية الملائمة لتنشئتهم فى ظروف نوعية راقية ، فلا شك أن النساء المتعلمات مثلا أقدر على تحمل مسئوليات الأمومة من الجاهلات ، وقد ورد فى كتاب دون ، الوارثة والسلالة والمجتمع ، نتيجة بعض الدراسات الديموجرافية المونوجرافية فى جماعة أمريكية على نحو ما هو مبين فى الجدول التالى الذى يبين متوسط عدد أطفال الأمهات اللاتى بلغن من العمر ٤٥ — ٩٠ سنة موضحاً ما بلغنه من تعليم وثقافة :

عدد سنوات الدراسة للأمهات	عدد الأطفال
لم تأخذ قسطاً من التعليم .	٣,٩٥
مضين من ١ — ٤ سنوات فى مدرسة متوسطة	٤,٣٣
» » ٥ — ٦ » » » »	٣,٧٤
» » ٧ — ٨ » » » »	٢,٧٨
» » ١ — ٣ » فى مدرسة عالية	٢,٣٧
» » ٤ سنوات فى مدرسة عالية	١,٧٥
» » ٣ سنوات فى كلية جامعة	١,٧١

. راجع Dunn: Genetics in the 20th . Century كتاب الوراثة والسلالة والمجتمع تأليف دون ودبرها نسكى (مترجم) .

وفى ضوء هذا الجدول نلاحظ العلاقة العكسية بين ثقافة الأمهات وعدد ما ينجبن من أطفال .

هذا وقد أجريت تحليلات أحصائية نوعية على الخصوبة التناسلية واختلافها باختلاف الطبقات الاجتماعية وذلك على النحو الآتى .

فى عام ١٩٣٥ وجد أن أطفال الأسر التى يقل دخلها السنوى عن ألف جنيه ضعف عدد أفراد الأسر التى يتراوح دخلها السنوى بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ جنيه ، وأطفال هذه الأسر الأخيرة أكثر بنسبة ٥٠٪ من أطفال الأسر التى يكون دخلها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر بكثير . ووجد أن أطفال عامل المزرعة أكثر بكثير من عدد أطفال مالك المزرعة . كما وجد أن أطفال العامل الماهر الممتاز أقل من أطفال العامل غير الممتاز . أما أصحاب الأعمال والكتبة والموظفين فأقل الجميع أنجاباً للأطفال .

وعندما فحصت مقاييس الذكاء فى أطفال هذه الأسر ، وجد أن معدل الذكاء كان يقل فى الأسر التى يرتفع فيها عدد الأطفال ويزيد فى الأسر التى تنقص عدد أطفالها . والجدول التالى يبين مدى اختلاف معدلات الذكاء باختلاف عمل الآباء : (١)

الوظيفة	متوسط الذكاء بالنقط
موظفون (رجال حرف)	١٢٥
رجال أعمال وكتبة	١٢٠
عمال مهرة ممتازون	١١٣
عمال عاديون	٥٦

وتباين الخصوبة عند الطبقات الاجتماعية المختلفة معناه أن الأجيال

(١) من كتاب دون : الوراثة والسلالة والمجتمع .

المقبلة ستنحدر بنسبة أعلى من الطبقات الأكثر خصوبة وبنسبة أقل من الطبقات الاجتماعية الأقل خصوبة . ولكن حظ الطبقات الاجتماعية الأكثر خصوبة من الذكاء أقل . وأكثر هذه الطبقات ذكاء تمنع نفسها بنفسها من انجاب النسل وتحمل عبء الأبوة . وعلى هذا فإن معدل الذكاء يقل فى الأجيال القادمة ، حتى أن بعض الهيئات الموثوق بها فى أمريكا ترى أن معدل الذكاء سيكون انخفاضه أسرع من ذلك بكثير .

اختلاف الطبقات فى الخصوبة :

هذا وللعلامة فرانك نوتشتين Frank Notestein مقال حول اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاجتماعية الاقتصادية ، بمعناها الواسع العريض ، والعناية باتجاهات هذه الاختلافات وبعض العوامل البيئية المتصلة بها ، والمشكلات التى ينبغى أن يوجه إليها البحث ، إذا ما أردنا أن نفهم دلالة هذه النواحى المرتبطة بعضها بالبعض الآخر .

ومن المرجح أن الاختلافات فى الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية لم تصبح ذات شأن ملحوظ ، إلا بنمو ثقافتنا الحضرية الصناعية الحديثة . وإحقاقاً للحق ، لقد لاحظ الباحثون — على مر عصور التاريخ الإنسانى — أن الطبقات العليا ، لاتتكاثر بنفس النسبة التى تتكاثر بها الطبقات الدنيا ، إلا أن تلك الملاحظات إنما تنصب على الطبقات المثقفة والفئات الحاكمة ، التى لا تمثل الاشرذمة ضئيلة جداً بالنسبة لمجموع السكان

أعيد طبع هذا المقال من المجلة السنوية الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية . عدد نوفبر ١٩٥٦ — من ص ١ — ١١ باذن من المؤلف والناشر .

The Annals of the American Academy of Political ans Social Science, Nov. 1936.

Reprinted in Class, Status, and Power, edited by Reinhard Bendix and Seymour Martin Lipset & Kigan Poul, 1945 pp.s71-281.

وقد ترجم المؤلف هذا المقال وراجعه الدكتور يوسف مراد ونشر فى العدد الثانى من مجلة اليونسكو التى تصدر بعنوان « مطالعات فى العلوم الاجتماعية » ربيع ١٩٥٩ .

فى المجتمعات التى تقوم اقتصادياتها على الزراعة والحرف اليدوية . غير أن نوتشتين وجه عنايه إلى القطاعات الرئيسية للسكان : وأعنى سكان المجتمعات الحضرية الذين يمثلون اليوم أكثر من نصف مجموع السكان عامة بينما يمثل أفراد الطبقات الراقية الربع على وجه التقريب ، فضلا عن أن هذه الطبقات ليست على جانب من الخصوبة ، يمكنها من الاحتفاظ بعدد أفراد على ما هو عليه ، أو يمكنها من اخلاف عدد يماثلها من الأفراد بل إنه يمكن للوطن تجديد إخلافها عن طريق طبقات الريفيين والعمال الذين يعتبرون ، بحق روافد (ومستودعات) سكانية للأمة . وفى ضوء هذا المقياس ، تبدو مسألة اختلافات الخصوبة كمشكلة حديثة العهد . وحتى إلى هذه اللحظة ، لا يمكن القول بأن العلاقة بين الخصوبة والمركز الاجتماعى الاقتصادى ، تمثل ارتباطاً عكسيا دائماً وفى كل المجتمعات ، فهذا الارتباط العكسى خاصية مميزة ، يمكن ملاحظتها فى المجتمعات الصناعية فى أوربا وأمريكا ، أما معلوماتنا عن الجماعات السكانية الأخرى (خارج أوربا وأمريكا) فمحدودة جداً ، غير أنه يمكننا أن نلاحظ بينها بعض الأمثلة للاستثناء من القاعدة العامة ، فالصين مثلا ما زالت تمثل بصفة رئيسية بلداً ذا نظام اقتصادى زراعى ، نظام يعلق أهمية غير عادية على استمرار الأسرة وهناك قام لامسون Lamson بدراسة مجموعة من العينات الصغيرة ، مأخوذة على نطاق واسع من مجتمعات حضرية ، فوجد أن المتعلمين والأغنياء ينجبون أطفالا أكثر عدداً من الجهلاء والفقراء[1] . فى الريف الصينى تبدو الاختلافات فى الخصوبة بين المجموعات المتفاوتة فى مستوياتها الاقتصادية أمراً غير ذى أهمية نسبياً ،

(١) Herbert D. Lamson, "Differential Reproduction in China", The Quartely Review of Biology, Vol. 10, No. 3 (Sept. 1935), pp. 308-321.

غير أنها إذا وجدت فإنها تشير أيضاً إلى ارتباط مباشر بين الخصوبة والمركز الاقتصادى . وقد قامت بعض الأوساط العلمية بجمع معلومات[١] حديثة حول هذا الموضوع ، وذلك من خلال دراسة أحوال ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف أسرة ، موزعة من حيث إقامتها على ١٠١ مجتمعاً ريفياً ، ولم تمدنا هذه المعلومات بأى دليل يثبت أن المتزوجات من أسر الملاك العاديين land-owner أكثر أو أقل خصوبة منهن فى عائلات كبار الملاك land-lord ومستأجرى الإقطاعيات tenants ، ومع ذلك فقد ثبت بوضوح أن هناك ثمت علاقة إيجابية بسيطة مطردة بين الخصوبة ومساحة المحصولات crop area فى المزرعة ، فقد أتضح أن النساء المتزوجات فى العائلات التى تملك أكبر المزارع مساحة فى المنطقة ، ينجبن أطفالا أكثر عدداً مما تنجب نظيراتهن فى العائلات التى تملك أصغر المزارع مساحة فى نفس المنطقة ، ومهما تكن دلالة تلك العلاقة المباشرة بين الخصوبة والمركز الاقتصادى للعائلة ، فإنه من الواضح على أقل تقدير أن اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاقتصادية فى الصين ، يغاير تماماً الاختلافات الملحوظة بين تلك الطبقات فى المجتمعات الصناعية الغربية .

ولماذا تتبعنا العلاقة بين الخصوبة والمركز الاقتصادى فى إنجلترا ، نجد أن هناك شواهد يقينية تدل على أن العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الاجتماعى الاقتصادى ، أخذت تتطور تطوراً سريعاً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولقد أمكن التمييز بين خمس طبقات عامة ، وثلاث طوائف مهنية خاصة ، وخصوبة كل طبقة محسوبة على أساس

---

(١) أشترك فى جمع هذه المعلومات الهيئات الآتية :

The University of Nanking, The China Institute of Pacific Relations, Milbank Memorial Fund.

متوسط عدد الأطفال المولودين - يعبر عنها كنسبة مئوية لعدد الأطفال في جميع الطبقات مع مراعاة تشابه تاريخ الزواج . ولا شك أن عرض الموضوع على هذا النحو يخفي الحقيقة الثابتة بأن الخصوبة في كل الطبقات آخذة في التناقص في هذه الفترة ، ومع هذا فإن التناقص كان أكثر سرعة في الطبقات العليا عنه في الطبقات الدنيا ، وأكثر سرعة في الطبقات الحضرية عنه في الجماعات الزراعية والجماعات التي تعمل في المزارع . ولا يمكن إنكار تأثير هذه الإتجاهات المختلفة على الخصوبة بالنسبة لكل طبقة . وبين النساء المتزوجات في الفترة من ١٨٥١ إلى ١٨٦١ كانت العلاقة عكسية بين الخصوبة وبين المركز الإجتماعي الإقتصادي ، إلا أن الإختلافات بين الطبقات كانت ضئيلة وتنبيء المعلومات أن هذه الإختلافات كانت أكثر ضآلة في الفترة السابقة على هذه الفترة . ومهما يكن من شأن هذه الإختلافات فإن الثابت أنها ازدادت بسرعة بعد عام ١٨٥١ ، فقد يزايد حجم الطبقات أكثر من مرتين ونصف بزيادة الزيجات المعقودة بين عامي ١٨٨٦، ١٨٩١ عنه وقت بدء التسجيل ومنذ ذلك التاريخ يحتمل أن تكون الإختلافات قد قلت، إلا أن هذا الإستدلال أو الإستنتاج لن يكون جازماً لأنه يتعلق بنساء ذوات خصوبة مستمرة وقت إجراء التعداد .

ومن المحتمل أن نجد في القرن الحالي مايعزز بقوة العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الإجتماعي الإقتصادي في الولايات المتحدة ، فقد قام كايزر Kiser (١) بدراسة جماعات مختارة من السكان البيض الوطنيين في شمال شرق الولايات الوسطى ، فوجد أن انخفاض الخصوبة بوجه عام نجم عنه تزايد الإختلاف بين الطبقات الحضرية والطبقات الريفية وذلك في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ .

---

(١) Census of England and Wales 1911, Vol. XIII, Pt II, London : His Majesty's Stationery Office, 1923.

Clyde V. Kiser, "Trends in the Fertility of Social Classes from 1910" Human Biology, Vol. 5 No. 2 (May 1933).

وقد كشف « أجبرن Ogburn »(١)، فى دراسته لحجم الأسر فى نفس الإقليم عن تزايد مماثل للإختلاف وذلك فى الفترة ما بين ١٩٠٠ ، ١٩٣٠ . ولقد وجد أن نقص حجم الأسرة فى الجماعات الحضرية كان أكبر نسبة فى طبقات أصحاب المهن الحرة وأقل نسبة بين العمال غير المهرة ، بينما دل تغير حجم الأسرة فى الجماعات الريفية على تغير بسيط فى الخصوبة . وليس هناك دليل قاطع حول ما إذا كان الاتجاه العام يسير نحو الاختلاف المتزايد فى خلال الفترة كلها أم لا . ولقد قدم هولبتون «Whelpton» بيانات تشير بوضوح إلى أن الاختلاف فى خصوبة الجماعات الريفية والحضرية آخذة فى الهبوط فى العصر الحاضر. وقد يصدق هذا القول نفسه على الاختلافات بين الطبقات المختلفة فى كل جماعة .

هذا ، وبينما تأخذ الاختلافات فى الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية فى الهبوط بدرجة ما ، تظل العلاقات العكسية ثابتة. ولقد أثبت عدد من الدراسات الحديثة صحة هذه الحقيقة، ليس فقط بالنسبة للبلد الواحد ككل ، بل أيضاً بالنسبة للسكان جميعاً فى مختلف المجتمعات ، متدرجين من الريف الواسع والقرى الزراعية إلى المدن الكبيرة ، وحتى بالنسبة للقطاعات الفقيرة من المدن الكبيرة ، حيث يتوقع الإنسان أن يجد من العوامل القوية ما يحقق تجانساً كبيراً (٢) .

ولاشك أن تزايد اختلاف الخصوبة بين الطبقات قد ارتفع أساساً كنتيجة لانخفاض معدل المواليد ، الذى كان سريعاً فى الطبقات العليا أكثر منه فى الطبقات الدنيا ، وكان أسرع فى الحضر منه فى المجتمعات الريفية .

(١) William F. Ogburn and Clark "The Family and its Functions", Chop. 13, Recent Social Trends in the United States (New York and London ; Mc Graw. Hill Book Co. 1933), Vol 2, p. 686.

(٢) أنظر مثلا من تلك الدراسات الحديثة .

Raymond Pearl, "Differential Fertility", The Quarterly Review of Biology, Vol. II No. 1 (Morch 1927), pp. 102-118.

W. F. Ogburn and Clark Tibbitts, "Birth Rates and Social Classes", Social Foices , Vol. 8 No. 9 (Sept 1929). pp. 1-10.

ولقد اتضح أن هذه الاتجاهات المختلفة قد نشأت أساساً بسبب الاختلاف فى استعمال وفاعلية منع الحمل[1] ، ويميل بعض الباحثين إلى إرجاع هذه العلاقة المتغيرة فى مجموعها إلى التخلف فى انتقال معرفة وسائل منع الحمل من طبقة لأخرى وإلى النظر إليها كعلاقة مؤقتة أكثر منها علاقة دائمة ، وأن هناك من الأدلة العقلية ما يحمل على الاعتقاد بأن الاختلافات بين الطبقات سوف تضيق ، بل ربما قد تنعكس إذا خضعت خصوبة جميع الطبقات لإشراف أكثر شمولاً ، فإذا ماوضعنا « تخطيطاً » للمواليد ، فإن عدد الأطفال سيكون متناسباً مع مقدرة الآباء على إعالتهم . ويشير أصحاب هذه الفكرة إلى أن هذا الأمر قد تحقق بالفعل فى استوكهلم ، حيث أصبحت المعلومات الخاصة بمنع الحمل ميسرة منذ وقت طويل ، وحيث أصبح معدل المواليد الآن أقل كثيراً من المستوى المطلوب للإحلال الدائم .

كما يتضح ذلك من الجدول رقم ١ المبين فيما يلى[2] :

الدخل	العمال	آخرون	التجارة	الفنون والوظائف	المجموع
أقل من ٤,٠٠٠	١١١	١٤٠	١١٠	١١٠	١١٠
٤,٠٠٠ — ٦,٠٠٠	١٠٩	١٢٠	١١٥	١١٢	١١٢
٦,٠٠٠ — ١٠,٠٠٠	١٠٥	١٢٥	١٣١	١٢٧	١٢٥
١٠,٠٠٠ فأكثر	—	١٥٢	١٥٤	١٥٤	١٥٤
المجموع	١١٠	١٢٤	١٣٤	١٢٣	—
المجموع غير المعيارى	١٠٧	١٢٢	١٢٨	١٢٥	—

جدول ١ — المعادلات المقننة لحصولة أربع جماعات مهنية فى استوكهلم من عام ١٩١٩ إلى ١٠٢٢ ، مع تقسيم فرعي لها طبقاً لدخل الطبقة .

(١) انظر مقال ريموند بيرل .

Raymond Pearl, The Annals, Nov. 1936-es

(٢) هذا الجدول مأخوذ عن كارل أرفيد أدين ، وإدوارد ب . ف هتشنسون دراستهما لاختلافات الخصوبة فى السويد .

Karl Arvid Edin aad Edward P. Hutchinson, Studies of Differential Fertility in Sweden. 116 Pp. (London : P. S. Kinh & Son Ltd 1935), p. 59.

والمعلومات والبيانات الواردة فى الجدول خاصة بالمتزوجين .

فقد وجد كل من أدين «Edin» وهتشنسون Hutchinson أن المتزوجين في الطبقات العليا في استوكهلم أكثر خصوبة من نظرائهم في الطبقات الدنيا. ويعتبر الدخل عاملا أكثر أهمية من المهنة في تحديد هذه العلاقة ، فبين الجماعات المتساوية في الدخل ، تنعدم العلاقة بين الخصوبة والمهنة . ومن ناحية أخرى ، لوحظ في كل جماعة مهنية — باستثناء العمال الصناعيين أن الخصوبة تزداد بشدة كلما قل الدخل ، وقد وجدت بعض العلاقات العكسية المماثلة في قليل من المدن الأوربية الأخرى وإن كانت العلاقة لاتبدوا بمثل هذه القوة وهذا الوضوح .

وتفسر العلاقة العكسية الموجودة عادة بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الاقتصادي ، على أنها تختلف في انتشار معرفة وسائل منع الحمل ، فهو زيادة في التبسيط لعلاقة سببية معقدة. ولا شك أن عامل منع الحمل هو أهم العوامل التي أمكن بواسطتها ضبط الخصوبة وتحديدها ، إلا أنه يمكن إرجاع الاختلافات الأساسية في مدى انتشار وفاعلية سياسة منع الحمل إلى : الاختلافات في العادات الجمعية customs والعادات الفردية habits ، والاتجاهات والاهتمامات الناشئة من تعقد الاختلافات في بيئة الطبقات . ويجب أن نوجه النظر إلى هذه الاختلافات البيئية كأسباب أساسية لكثير من اختلافات الطبقات في الخصوبة ، وعوامل تغيرها [1] ويجدر بنا في هذا المجال أن نناقش باختصار بعض هذه العوامل البيئية .

عامل التربية

من المعروف المتواتر منذ مدة طويلة أن التعليم الواسع المدى ، والخصوبة المنخفضة ، يسيران جنباً إلى جنب ، وإن أي عدد من الدراسات يقارن فيها بين خصوبة خريجي الجامعات وخصوبة غيرهم من غير الخريجين،

(١) وكما أن الاختلافات بين الأفراد ترجع إلى عدة عوامل تتضمن أيضاً الاختلافات التوالدية المتوارثة ، فكذلك الشأن بالنسبة للاختلافات بين الطبقات غير أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق دراستنا الحالية ولذلك استبعدنا الحديث عنها .

أو أشخاص آخرين يشبهونهم بوجه عام فى «طرق معيشتهم» ، ليشير إلى هذا الاتجاه نفسه [١] . وعلى أية حال فهذه الدراسات تشير إلى أن الخصوبة المنخفضة للجامعيين ، ترجع أساساً إلى قلة النسبة التى تتزوج بينها ، وإلى سن الزواج المتأخر ، أكثر من من كونها نتيجة ضعف خصوبة المتزوجين منهم.

هذا وقد لاحظ العلامة نوتشتين Notcstein .

١ـ أولا : أن التحصيل الدراسى والخصوبة يرتبطان ارتباطا عكسياً ، ليس فقط فى العينة العامة لكل مجتمع ، بل أيضاً داخل الطبقات المهنية الواسعة نسبياً . فالإختلافات فى الخصوبة بين خريجى الجامعات وخريجى المدارس العليا أقل نسبياً إذا ماقورنت بالإختلافات فى الخصوبة بين خريجى المدارس العليا وخريجى المدارس العامة . ويبدو أن الحصول على قدر متوسط أو محدود من التعليم ، يكون مصحوباً بانخفاض كبير فى الخصوبة .

٢ـ ثانياً : أن الإرتباط العكسى بين الخصوبة والمركز المهنى العام يصدق ، أو يظل قائماً ، حتى إذا كانت المقارنة مقصورة على جماعات تعليمية أو مستويات تربوية متشابهة .

٣ـ ثالثاً : يبدو أن الخصوبة فى كل طبقة مهنية أو تربوية تعليمية ، تتأثر بالخصائص العامة للمجتمع أو البيئة الإجتماعية المحلية . فمعدلات المواليد تبلغ أقصى علوها فى الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى ، ولكنها تنخفض باطراد فى المدن الصغرى مثل كولمبس وسيراكوز . وتصدق هذه العلاقة عندما تكون المقارنة مقصورة على جماعات مهنية وتعليمية متماثلة .

---

(١) انظر أمثلة على هذه الدراسات فى البحوث الآتية :

Willystine Goodsell, "The Size of Families of College and College Women", The American Journal of Sociology, Vol.XLI. No. 5 March 1936.

May Roberts Smith "Statistics of College and Non-College Women," Quarterly Publications of the American Statical Association Vol. 7 (1900) , pp 1 - 26.

٢ - عامل الدين :

وتقدم لنا بعض الدراسات الميدانية ، معلومات قيمة حول العلاقة بين الخصوبة والمذهب الدينى ـ الذى يعتنقه من أجريت بينهم تلك الدراسات فتجد مثلا أن الكاثوليك أكثر خصوبة من البروتستانت ، ولو أن الاختلافات تكون أعظم بين عائلات أصحاب الأعمال منها بين العمال غير المهرة ، ففى هذه الطبقة الأخيرة تظل نسب العائلات الكبيرة كما هى . ومن الواضح بنفس الدرجة أن كلا من الجماعتين الدينيتين تبدى خاصية الارتباط العكسى بين الخصوبة والمركز المهنى ، على الرغم من أن هذا الارتباط أقوى بين البروتستانت منه بين الكاثوليك ، وتتفق هذه النتائج فى روحها العامة مع الدراسة التى أجريت على رواد عيادة تحديد النسل فى مدينة نيويورك [1] . وتظهر هذه الدراسة أن ـ حتى بين الجماعة المختارة من بين الذين كانوا يترددون على العيادة ، كانت ممارستهم لمنع الحمل قبل زيارة العيادة ، أقل حدوثاً وأضعف فاعلية وتأثيراً عنها بين رواد العيادة من البروتستانت واليهود . وتحملنا هذه المعلومات على الاعتقاد اعتقاداً حازماً أولا : بأن الخصوبة أقل انضباطاً بين الكاثوليك عنها بين البروتستانت وثانياً : بأن الخصوبة فى كلا الجماعتين الدينيتين تستجيب فى نفس الاتجاه لبيئات متماثلة .

٣ - عامل مركز الدخل

وترتبط الخصوبة كذلك ارتباطاً عكسياً بمركز الدخل . ويصدق هذا على الخصوبة بين الأسر التى اختبرت من الأحياء الفقيرة فى بعض المدن الكبرى

(١) Regine K. Stix and Frank Notestein, "Effectiveness of Birth Control", The Milbank Memorial Fund Quarterly Vol. VIII, No. 2 (April 1935) pp. 162-178.

وقد تبين بوضوح أن النساء فى الأسر ذات الدخل الذى يقل عن ١٢٠٠ دولار فى عام ١٩٢٩ أكثر خصوبة من نظيراتهن فى الأسر التى دخلها ٢٠٠٠ دولار أو أكثر . ويوجد أيضا نفس النمط من العلاقة بالنسبة لطبقة أصحاب الأعمال

ويجب أن نفطن إلى أن اختلاف خصوبة الفقراء والأغنياء لا يوضح بالضبط تأثير الدخل فى حد ذاته على الخصوبة ، أكثر مما توضح اختلافات الخصوبة بين الجماعات التعليمة أثر التربية فى حد ذاتها عليها . وإذا كنا عندما نتكلم بوجه عام نقصد بالفقراء غير المتعلمين والعمال اليدويين وخاصة فئة غير المهرة ، فإن تصنيفات الجماعات على أساس أية خاصية ستكشف عن علاقة مستويات الخصوبة بالعوامل الأخرى بل بعوامل أكثر من ذلك مما يساعد على تحديد العادات الجمعية والفرديه والاتجاهات والإهتمامات للجماعات ذات المركز المنخفض أو الأدنى . وعلى هذا النحو تكون جميع الخواص متشابكة إلى درجة تجعل من المستحيل فصل بعضها عن البعض الآخر فصلا تاماً .

ومن المهم بوجه خاص فى تحديدنا لعلاقة الفقر بالخصوبة أن نفطن إلى الطبيعة المعقدة للخواص الطبقية ، وكثيراً جداً ما يفترض أن الخصوبة العالية للفقراء تشير إلى التأثير المباشر للفقر أو انعدام الدخل فى تنشيط الخصوبة ، والشواهد هنا ناقصة تماماً . إذا يبدو أنه من الممكن أن يرتبط الفقر بالخصوبة من خلال طرق المعيشة التى هى فى الوقت نفسه أسبابه ونتائجه . وإذا ما استقرت طرق المعيشة هذه فإنها تكون بطيئة التغير .

وعلى أساس هذه النظرة لواقع الأمر ، فإنه يكون من الصعب ترقع أن يعمل الضغط الاقتصادى المتزايد كمنشط مباشر للخصوبة .